

7 الفصل السابع



مشكلات

زوجية

obeikandi.com

التراكمات في الحياة الزوجية

العلاقة الزوجية يميزها أنها علاقة شديدة القرب (معنوياً وحسياً) شديدة الخصوصية، إضافةً إلى كونها علاقة مستديمة وعلاقة حتمية، وهذه الخصائص في العلاقة الزوجية يفترض أن تؤدي إلى نتائج إيجابية، وهي فعلاً كذلك في حالة نجاحها وتحقيقها لمعاني السكن والمودة والرحمة التي وردت في توصيف أركان هذه العلاقة في القرآن الكريم، أما إذا خرجت العلاقة عن هذا الإطار؛ فإن كلَّ الخصائص السابقة يمكن أن تتحول إلى مشكلات تتراكم عبر الزمن حتى تصبح مزمنة أو مستعصية، قد تؤدي في قمة متصل التراكم إلى أن يقتل أحد الطرفين الآخر وبصورة بشعة، فمثلاً كونها علاقة شديدة القرب يعطي فرصة للاحتواء والذوبان الجميل، كما يعطي فرصة على الناحية الأخرى للاحتكاكات والتربصات والعلاقات المؤلمة جسدياً ونفسياً، وكونها علاقة شديدة الخصوصية يعطي فرصة لحفظ الأسرار والثقة والإفصاح عن الذات دون قيود أو تحفظ كما يعطي فرصة على الناحية الأخرى لاستغلال الأسرار وابتزاز صاحبها (أو صاحبته) وإذلاله أو فضحه، وكونها علاقة مستديمة يعطي فرصة لتراكم الذكريات الجميلة والمشاعر الحلوة، كما يعطي على الجانب الآخر فرصة لتراكم مشاعر الإحباط والغضب والكراهية، وكونها علاقة حتمية يعطي إحاءاً للطرفين بالارتباط الدائم والأمن في الدنيا والآخرة، وعلى الجانب الآخر يمكن أن يعطي إحساساً

بالدخول في طريق مسدود مع شريك نعاني منه ولا نرغبه، ولا نستطيع الفكك من قيوده.

التراكمات والارتباطات الشرطية:

والتراكمات سواء كانت إيجابية أم سلبية تحدث ما يسمّى بالارتباط الشرطي، بمعنى أنه حيثما كانت العلاقة جيدة، فإنّ هناك رصيدين من الأحداث والذكريات الجميلة والأحاسيس اللذيذة تجعل كلا الزوجين حين يلتقيان يشعران بالراحة والأمان والمودة والسعادة؛ لأن ظهور أحدهما على شاشة وعي الآخر يفتح النفس نوافذ يظهر من خلالها تاريخ ممتد من اللحظات السعيدة، وحيثما كانت العلاقة سيئة، فإن ظهور أحدهما على شاشة وعي الآخر يستدعى مشاعر سيئة مرتبطة بتاريخ طويل من الصراع المرير والمعاناة المؤلمة، وقد يصل الأمر عند بعض الأزواج أن يشعر بصداع شديد أو غثيان حين يرى شريك حياته، وكأن الارتباط الشرطي امتد من النفس إلى الجسد، وشمل كل نبض روح، وكل خلية جسد.

وربما لا تكون الأمور في الواقع بهذا التبسيط الثنائي بين السعادة والتعاسة، وإنما هي مزيج من هذا وذاك، ولكن ما يهمنا هو حصيلة ذلك التراكم، وهل هو في الاتجاه الإيجابي أم السلبي على وجه العموم، وهناك علامة بسيطة تعطينا انطباعاً عن حصيلة التراكمات بين أي زوجين، وهي أنه كلما اشتاقا لبعضهما، وسعيا نحو التواجد معاً؛ فهذه دلالة على ميل التراكم نحو الإيجابية، ووجود ارتباطات شرطية سارة،

والعكس صحيح.

وربما يفسر لنا هذا اشتياق كثير من الزوجات «وحشتني» (اشتقت إليك) من الزوج؛ لأن هذه الكلمة رغم بساطتها وقلة حروفها إلا أنها تعبر عن هذا التراكم الإيجابي للأحداث والذكريات، وتعبر عن الارتباطات الشرطية السارة بين الزوجين، وتدللُّ على أن حضور الزوجة في وعي زوجها يفتح لديه نوافذ للسكينة والطمأنينة والمودة والحب والراحة والمتعة.

ومن هنا نفهم أيضاً لماذا ينفر الرجال من الزوجة الغيورة أو النكدية حيث إن حضور الأولى يرتبط بشكوك واتهامات وتساؤلات، ونزاعات، وحضور الثانية يرتبط بالحزن والههم والغم، وبتراكم هذه المشاعر بمرور السنين تتكون منظومات من الارتباطات الشرطية تجعل مجرد رؤية أو سماع أو حتى تذكر الطرف الآخر يفتح بركاناً من المشاعر السيئة والمؤلمة، ولهذا فالمرأة التي تجعل جو البيت مشحوناً ومضطرباً تساهم في دفع زوجها للبحث عن مشاعر سارة خارج المنزل، فإذا حدث وتلقفته امرأة أخرى، وكان حضورها في وعيه مريحاً وساراً؛ فإن تراكمات سعيدة تبدأ في التكوين، ويختل الميزان لغير صالح الزوجة، حيث تدفع هي زوجها بالتراكمات السلبية في حين تجتذب الأخرى هذا الزوج بالتراكمات السعيدة والارتباطات السارة، وهذه أحد الجوانب النفسية لحدوث الخيانة الزوجية واستمرارها خاصة مع الزوجة شديدة الغيرة أو الزوج شديد الغيرة، فكلهما يجعل لقاء الآخر به مؤلماً، ويجعل فكرة الخيانة لديه نشطة طول الوقت، وحين تكتشف الخيانة

تزداد الخلافات الزوجية، ويختل الميزان أكثر وأكثر؛ فينفر الزوج من الزوجة إلى العشيقة، أو تنفر الزوجة من الزوج إلى العشيقة.

ومن أحد أسرار العلاقة الحميمة بين الزوجين أنها تربطهما بمشاعر سارة طوال حياتهما، وتجعل بينهما كنز من الذكريات والأحاسيس الجميلة، ولهذا خصَّ الله هذه العلاقة بأعلى درجات من اللذة الحسية يمكن أن يتذوقها الجهاز العصبي، وكان المقصود أن يدمن كل منهما الآخر من خلال ارتباطات شرطية سعيدة ولذيذة تعوض وتوازن ما يتعرضان له من متاعب الحياة ومسئوليات الأسرة والأبناء، ولهذا نقلق كثيراً حين تضطرب هذه العلاقة بين الزوجين؛ لأن معنى هذا أن ثمة اضطراب متوقع في ميزان التراكمات، وربما ترجح كفة التراكمات السلبية، فيزهد أحد الزوجين الآخر أو يبغضه.

وربما يفسر لنا هذا الأمر كراهة الطلاق من الناحية الشرعية أثناء فترة الحيض، ونهي الرسول ﷺ عنه؛ لأن في هذه الفترة تتوقف هذه العلاقة الحميمة، وربما يختل التوازن ناحية التراكمات السلبية، خاصة إذا كان رصيد الزوجين من التراكمات الإيجابية ضعيفاً.

توازنات التراكم ونوعية الحياة الزوجية :

إذن فالحياة الزوجية قابلة لإحداث التراكم الإيجابي للخبرات والمشاعر إلى الدرجة التي تربط الطرفين لأقصى درجات الارتباط بين البشر، ومن جهة أخرى قابلة لإحداث التراكم السلبي أيضاً لأقصى الدرجات التي تدفع للقتل انتقاماً وخلصاً من شريك قاهر وضاعط وخانق.

ونستطيع القول بأن نوعية الحياة الزوجية تتوقف على ترجيح نوع التراكم، فإذا رجحت كفة التراكم الإيجابي كانت الحياة الزوجية أقرب للسعادة بقدر درجة الرجحان، والعكس صحيح، أما إذا كانت الكفتان متقاربتان؛ فنحن هنا أمام حياة زوجية على الحافة، وسلوك الزوجين وسلوك من حولهما يدفع إلى رجحان الكفتين؛ فإما أن يطلقا، وإما أن يتجها إلى بعض التوافق، وأحياناً تظل الكفتان متأرجحتين، وتظل الحياة الزوجية تحت التهديد لسنوات طويلة، وهذا في الحقيقة وضع مؤلم؛ لأنه يضع الطرفين في صراع لا يحسم، فمن ناحية توجد أشياء إيجابية تربطهم، ومن ناحية أخرى توجد تراكمات سلبية تبعدهم، وفي علاقة كهذه نتوقع وجود مشاعر متناقضة من الحب والبغض والرضا والسخط والأمان والخوف فوق كل هذا حيرة لا تنتهي.

التراكمات السلبية:

وربما لا نتحدث كثيراً عن التراكمات الإيجابية على أساس أنها الشيء البديهي المتوقع في العلاقات الزوجية السوية، ولكننا هنا سنركز على التراكمات السلبية نظراً لخطورتها واحتياجها للتدخل الإصلاحي والعلاجي.

ولكي نفهم خطورة التراكمات السلبية في الحياة الزوجية ربما نحتاج لأن نستدعي أحداثاً روعت الضمير الإنساني وصدمته مثل الزوجات اللاتي قتلن أزواجهن وقطعنهن قطعاً ووضعهن في أكياس بلاستيك، وقد تكرر هذا الأمر في فترة ما منذ عدة سنوات، لدرجة أفرغت الرجال، والزوج الذي قتل بناته الست انتقاماً من أهمهم.

والآن نحاول أن نفهم لماذا يحدث التراكم السلبي في العلاقة الزوجية؟

ولماذا يحتفظ أحد الأطراف بمشاعره المؤلمة لسنوات؟

وما الذي يمكن أن تحدثه هذه المشاعر في العلاقة بين الطرفين، وفي الحالة النفسية والجسدية لهما أو لأحدهما؟

من الطبيعي أن يمرّ الزوجان بلحظات اتفاق ولحظات اختلاف، وأن ما تتركه لحظات الاختلاف أو حتى الخصام من أثر يجب أن يجد له مخرجاً في لحظة عتاب أو موقف محاسبة أو سماح لكي تتخلص النفس من هذه الذكرى ومن آثارها، على اعتبار أننا جميعاً بشر، ومعرضون للخطأ، وبمعنى آخر هناك أزواج وزوجات يملكون آلية دائمة للتخلص من آثار الخلافات أو الخصومات حتى تظلّ نفوسهم غضة ونظيفة وقابلة لتلقي التراكمات الأجل والأسعد، وأيضاً هناك أزواج وزوجات لا يستطيعون التخلص من مشاعرهم السلبية تجاه الطرف الآخر، وتظلّ هذه المشاعر تتراكم، وتتحوّل من الإحباط إلى الغضب، ومن الغضب إلى الحنق، ومن الحنق إلى الرغبة في العدوان والانتقام، وفي النهاية قد نصل فعلاً إلى العدوان والانتقام سواء كان لفظياً (نقد مستمر، سخرية، شتائم) أو جسدياً (دفع، ضرب، قتل).

وفي ظروف معينة قد لا يستطيع الطرف المحبط والغاضب إخراج عدوانه، فيكبته لشهور أو سنوات، وتكون النتيجة اضطراباً نفسياً لدى هذا الطرف المحيط الغاضب المكبوت، ويكون الاضطراب في صورة

أمراض نفسجسمية (ارتفاع في الضغط، أزمة قلبية، مرض السكري، والرماتويد، الصداع المزمن، القولون العصبي، الحكة الجلدية العصبية، الصدفية... إلخ) أو أمراض نفسية (قلق أو اكتئاب)، وعدم وجود آلية لإزالة التراكبات السلبية يجعل الحياة الزوجية أشبه بمدينة غاب عنها عمال النظافة، وتعطلت فيها محطات الصرف الصحي، أو أشبه بسيارة انسدت فيها ماسورة العادم (الشكمان).

أسباب زيادة احتمالات التراكم السلبي:

وهناك ظروف وأحوال ترجح التراكم السلبي للمشاعر لدى أحد الأطراف أو كليهما نذكر منها:

١- **ضعف القدرات والمهارات:** فقد وجد أن الأشخاص الأقل ذكاءً أو الأقل ثقافةً والأقل في المهارات الاجتماعية، والأقل تديناً، والأقل ثقةً بالنفس، والأكثر فقراً، والأشخاص الاعتماديين السلبيين، والأشخاص الأكثر احتياجاً للتقدير والتعاطف، كلُّ هؤلاء يكونون أكثر عرضةً لتراكم المشاعر السلبية في علاقاتهم الزوجية، وحتى في علاقاتهم الاجتماعية؛ لأنهم يكونون في حاجة شديدة للآخر ولتقديره ولرضاه، وفي نفس الوقت ليست لديهم المهارات الكافية للحصول على ذلك، فيقعون في دائرة الإحباط التي تؤدي بهم إلى الغضب، وحين لا يجدون منصرفاً للغضب (أو هم لا يملكون مهارات تصريف الغضب)؛ فإنه يتحول إلى غضب مكتوم أو مخزون أو غير منصرف، وهو ما نسّميه «الحنق»، وهذا الحنق يمكن أن يتحول إلى رغبة في العدوان على الآخر

أو إلى عدوان فعلي، وقد يكبت كما ذكرنا، ويترك آثاراً نفسيةً وجسديةً كثيرةً.

وبعبارة أخرى نقول بأن الطرف الضعيف أكثر قابلية لتراكم مشاعر الإحباط والقهر واليأس والغضب والعدوان من الطرف القوي المسيطر، ولذلك يكون انتقام هذا الطرف الأضعف مفاجئاً ومدويًا أحياناً؛ لأنه حصيلة تراكم سنوات طويلة تحت السطح حتى إذا وصل الضغط الداخلي إلى مرحلة حرجة خرج العدوان كالبركان أو الطوفان، ولهذا نحذّر دائماً في العلاقات الزوجية (وفي العلاقات الإنسانية عموماً) من انتقام الضعيف نظراً لما لديه من مخزون غضب وعدوان متراكم.

٢- الاستبداد والطغيان: ويزيد من احتمالات التراكم السلبي أن يكون الشريك الآخر مستبدًا طاغياً قاهرًا كاتماً لأي تعبير انفعالي من الطرف الآخر، ومحاولاً إغائه وقمعه تحت أي دعوى أو مسمى، وهنا يفقد الطرف المقهور أي فرصة للتعبير عن مشاعره، ويضطر اضطراراً إلى اختزانها.

٣- فقد الخيارات: وقد تلعب البيئة المحيطة دوراً مهماً في زيادة التراكم السلبي حين يفقد الطرف المقهور والمكبوت خياراته، ويجد نفسه في طريق مسدود؛ فمثلاً الزوجة التي يقهرها، ويظلمها زوجها، ولا تجد مخرجاً منه؛ فليس لها مكان آخر تذهب إليه أو أنها مضطرة للاستمرار معه من أجل الأولاد، أو تخشى مواجهة الحياة كمطلقة، ويزيد الطين بله حين يستغل الطرف القاهر المستبد هذا الوضع؛ فيبالغ في ظلمه وإهانته لها.

٤- فشل الاستيعاب المعرفي: عدم قدرة أحد الأطراف أو كليهما على استيعاب الخبرات الحياتية المؤلمة في المنظومة المعرفية، وهذا يجعل كل مشكلة حياتية عادية تتحول لأزمة، وتأخذ أكبر من حجمها، وتستغرق أكثر من الوقت المتوقع لها، وتحدث آثاراً واسعة النطاق على الحياة الزوجية والحياة النفسية، ويدخل في ذلك ما نسميه بالتقدير المعرفي له؛ فهناك شخصان يواجهان نفس المشكلة، ولكن يتأثر كل شخص منهما بحسب تقديره لحجم المشكلة وخطورتها.

٥- ضعف القدرة على السماح: وضعف هذه القدرة أو غيابها يجعل كل خطأ أو حدث مؤلم مضافاً إلى مخزون الأخطاء والأحداث المؤلمة السابقة دون وجود فرصة لتطهير النفس من هذه التراكمات، ونظراً لأهمية هذا المفهوم في الحياة الزوجية، سنتحدث عنه بتفصيل بعد قليل.

٦- الانفراد: بمعنى أنه لا يوجد طرف ثالث بين الزوجين، وهنا ينفرد الطرف الأقوى بالطرف الضعيف فيذله ويهينه ويخنقه، ولا يجد الطرف الضعيف ملاذاً غير كتمان غضبه وعدوانه، والطرف الثالث هنا قد يكون الله (لدى الأزواج المتدينين) أو تكون الأسرة أو أحد الأصدقاء، أو الأبناء، أو الجيران، أو هيئة أو مؤسسة حكومية أو غير حكومية، والطرف الثالث هنا يلطف عن مشاعر العدوان، ويضع قواعد للتعامل، ويفصل في الخصومات ويصفيها، ويفتح مسارات للغفران والتسامح.

آليات تخفيف التراكم:

١- العتاب: وهو يكفي لبعض الناس خاصةً حين يكون الخطأ بسيطاً ومحتماً، والطرفين على درجة معقولة من النضج.

٢- التعبير عن المشاعر: وذلك بأن تتاح الفرصة لكل طرف للتعبير عن مشاعره، وبشكل مقبول، وذلك لكي تصل الرسالة للطرف الآخر؛ فيتوقف أو يعتذر أو يصحح أو يخفف.

٣- وجود طرف ثالث: يسمع الشكوى، ويفصل بين الطرفين، ويعطي كل ذي حق حقه، وقد يكون هذا الطرف الثالث من الناس المحيطين، أو يكون هذا الطرف الثالث هو الله، يلجأ إليه الطرف المظلوم بالشكوى، وينتظر منه الفرج والرحمة أو القصاص من الطرف الظالم، والثقة في عدل الله، وقدرته على القصاص في الدنيا والآخرة، تعطي راحة للطرف المقهور، وقدرة أكثر على الاستمرار.

٤- السماح: وهو يعني أن تنسى الإساءة، ولا تعاقب عليها، ولا يبقى بداخلك غضب بسببها، وهو قدرة يمتلكها بعض الناس حيث يمكنهم نسيان الإساءة، والتغاضي عنها، واستمرار التعامل الإيجابي مع الطرف المسيء بناءً على اعتبارات إنسانية أو دينية تسهل نسيان الإساءات، والقدرة على فتح صفحات جديدة في الحياة، وإغلاق ملفات وفتح ملفات حسب الظروف المحيطة، وحسب التقدير الشخصي، وحسب المعتقدات الدينية والاجتماعية، وهو علاج للذاكرة المرضية (الرغبة في الانتقام)، والتي تعني التثبيت على الحدث، وعدم

القدرة على تجاوزه، والدوران في دائرة مغلقة عقلياً وانفعالياً.

وهناك أشياء لازمة لزيادة القدرة على السماح نذكر منها توقف الخبرات المؤلمة أو حدوثها على فترات بحيث تعطي فرصة لالتقاط الأنفاس واستعداد التوازن، واستعادة القدرة على التعامل مع العواقب والآثار، مع وجود شبكة للدعم والمساندة، وإمكانية استيعاب الخبرة المؤلمة في المنظومة المعرفية، مع تصور إيجابي للكون وللحياة، وتصور واقعي للإنسان على أنه مخلوق يصيب ويخطئ، وهو في كل ذلك ليس شيطاناً ولا ملاكاً.

وهناك ظروف وأحوال يفشل فيها التسامح أو تقل احتمالاته نذكر منها: استمرار التهديد واستمرار الضغوط، أو زيادة الضغوط على القدرة والاحتمال، أو غياب شبكة المساعدة، أو عدم القدرة على استيعاب الأحداث المؤلمة في المنظومة المعرفية، أو عدم القدرة على إعطاء معنى للأشياء المؤلمة، أو غياب مسارات التنفيس أو انسدادها، أو غياب مسارات لتحقيق الذات والإنجاز.

والتسامح مفيد للشخص ذاته؛ إذ

يظهر نفسه من مشاعر الحقد والغضب

والانتقام، ويحمي الجسم من ارتداد هذه

المشاعر وإيذائها له.

وهناك على المستوى الديني ما يعلي من قيمة التسامح، ويشجع

عليه، كقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٤﴾، وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، وقول رسول الله ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ إِنْفَاذِهِ؛ زَوَّجَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ الْعِينِ شَاءَ».

والمساحون غير الماسوشيين (الذين يستعذبون الألم والعذاب)؛ فالمساحين لا يرغبون في الألم ولا يستعذبونه، ولكن لديهم رؤية وفلسفة تدفعهم للتغاضي عن الزلات ونسيانها، وتنظيف جهازهم النفسي منها، أما الماسوشيون؛ فلديهم مشاعر عميقة بالذنب، ويشعرون أن إيلاهم وقهرهم يطهرهم من ذنوبهم، أو أن لديهم اعتقاد بأن اللذة لا بد وأن يسبقها ألم، وهذا الموقف الماسوشي أقرب ما يكون إلى المرض.

متصل التراكم السلبي:

تبدأ القصة بشعور الطرف الضعيف بالإحباط في علاقته الزوجية؛ فهو لا يستطيع التعبير عن نفسه، ولا يستطيع تحقيق أحلامه أو تحقيق ذاته أو تحقيق توقعاته في هذه العلاقة، وشيئاً فشيئاً (إذا لم ينتبه الطرف الآخر)، يتحول الإحباط إلى غضب، وإذا لم يجد الغضب مساراً يسلكه إلى الخارج؛ فإنه يتحول إلى غضب غير منصرف أو مكتوم، وهو ما نسميه «الحنق»، وهذا الحنق إما أن يتحول إلى رغبة في الانتقام والعدوان الموجه إلى الطرف الآخر أو يوجه إلى الذات في صورة اكتئاب أو رغبة في الانتحار.

وأحياناً يتم تحويل الانتقام (إزاحته) إلى طرف ثالث، وأكثر طرف مهياً لهذا التحويل هم الأطفال؛ فالأم المحبطة في علاقتها الزوجية أكثر

قابليةً لضرب أبنائها وإيذائهم، وقد تصل في ذلك إلى درجات شديدة وخطرة من الإيذاء، رغم أنه لا يوجد مبرر ظاهر لذلك، (وكذلك الأب المحبط المهزوم وقد يتوجه بعدوانه نحو الأبناء، أو قد يتحول العدوان كأن تكسر الزوجة الغاضبة فإزة أو نجفة أو أي شيء في البيت، وقد يفعل الزوج الغاضب مثل ذلك أو أكثر منه، وقد يصل تحويل العدوان إلى درجة قتل الأبناء أو البنات، كما حدث مع الزوج المقهور الضعيف حين قتل ستة من بناته، وأفلتت منه السابعة بسبب خلافات مزمنة بينه وبين زوجته.

وبعض الناس يعممون الغضب والعدوان؛ فنجدهم في كل تعاملاتهم مع الناس يتسمون بالقسوة والعنف بلا مبرر واضح، وبعض الأزواج قد ينتقم بالخيانة، والبعض الآخر قد يسترد كرامته ومكانته بمزيد من النجاح والإنجاز بهدف تجاوز إيذاء الطرف المعتدي.

مظاهر العدوان في الحياة الزوجية:

وحين يصل التراكم مداه، وتفشل وسائل كتمانها يبدأ في الظهور بشكل متدرج كالتالي:

١- **العنف النفسي:** ويظهر في إهمال الطرف المعتدي واحتقاره وتجنبه والشماتة فيه، وتمني السوء له، وانتظار الخلاص منه، والصمت العدوانى تجاهه ومكايده وعناده.

٢- **العنف اللفظي:** ويبدأ في صورة انتقاد مستمر للطرف الآخر أو لوم أو سخرية لاذعة أو نكات أو تعليقات جارحة، ويصل في النهاية إلى السب والقذف.

٣- **العنف الجسدي:** مثل الدفع واللطم واللكم والركل، ولوسائل العنف الجسدي دلالات هامة؛ فمثلاً الصفعة تعني ردّاً لجرح كرامة أو شرف، بينما للكمة تعني رغبة في التدمير، في حين أن الركلة تعني الإهانة والاحتقار والإذلال، وقد وجد أن (٢٠-٥٠%) من النساء يتعرضن للعنف بشكل منتظم في حياتهن، وعلى الجانب الآخر وجد أن ٢٣% من الزوجات يضربن أزواجهن.

ومن المفترض أو من الواجب أن نرصد مظاهر التراكم السلبي للمشاعر، ونرصد بدايات ظهور العنف قبل أن تستفحل، وتتحول إلى عنف جسدي ربما يصل إلى القتل، ولا يخذعنا وجود الحب، فنطمئن لغياب الخطورة، فقد وجد أن ٣٠% من النساء اللاتي متن قتلاً كان ذلك بواسطة شخص محب (زوج حالي أو زوج سابق أو حبيب أو صديق).

وسائل وأليات دعم التراكم الإيجابي :

ربما يبدو مفيداً في نهاية هذه الدراسة أن نتحدث عن كيف نزيد من احتمالات التراكم الإيجابي في الحياة الزوجية كي تستمر تلك الحياة، وتنعم فيها بالسعادة:

١- توفير جو من السكينة في المنزل، بحيث يشعر الزوجان بأنه أكثر

الأماكن راحةً وأمنًا واستقراراً، فهُم يشتاقون إليه حين ابتعادهم عنه، ويشعرون فيه بالبساطة والتلقائية والراحة.

٢- التعبير عن مشاعر المودة والحب بكلِّ الوسائل واللغات الممكنة والمتاحة (لفظية وغير لفظية)، أي بالكلمة الحلوة والنظرة الحانية واللمسة الرقيقة والحضن الدافئ والهدية المعبرة في المناسبات المختلفة، وعدم كتمان هذه المشاعر أو اعتبارها وصلت لمجرد وجودها داخل نفس الزوجين.

٣- القدرة على المصارحة والعتاب وتصفية الخلافات في جو من التقبل، مع السماح بالتعبير عن الإحباط أو الغضب في حالة وجودها.

٤- التسامح، والقدرة على تجاوز الزلات والأخطاء، وعلى فتح صفحات جديدة في العلاقة الزوجية.

٥- الرضا بما يستطيع كل طرف أن يقدمه بحيث لا نكلفه ما لا يطيق.

٦- الاهتمام بالعلاقة الحميمة، وتهيئة أفضل الظروف لها بحيث تمنح الطرفين أقصى درجات السعادة الممكنة.

٧- تهيئة الظروف لارتباطات سارة من خلال قضاء لحظات سعيدة في نزعات أو رحلات تصنع رصيماً من الذكريات بين الزوجين.

٨- محاولة استعادة الذكريات الحلوة بين الزوجين في جلسات الصفاء بينهما.

٩- تسجيل اللحظات الجميلة مثل حفل الخطوبة والزواج والرحلات والنزهات بوسائل التسجيل الممكنة (صورة فوتوغرافية أو فيديو أو غيرها)، مع محاولة استعراضها من وقت لآخر لتنشيط ذاكرة الأوقات السعيدة والذكريات الجميلة بين الزوجين، وهذا التسجيل يمثل أرشيف للسعادة يفتحه الزوجان من وقت لآخر.

١٠- استمتاع الزوجين «معاً» بلحظات تأمل للجمال أمام بحر أو مكان طبيعي أو سماع شيء تلذ له الأذن.

١١- اشتراك الزوجين في بعض الأنشطة الروحية مثل الصلاة أو قراءة القرآن أو قيام الليل أو الحج أو العمرة أو أعمال الخير بأشكالها المختلفة.

الصمت الزوجي

على عكس السيولة الكلامية التي تظهر على الطرفين في فترة الخطوبة يظهر بعد الزواج بفترة قد تطول أو تقصر ما يسمّى بـ «الصمت الزوجي»، والذي قد تشتد حدته إلى الدرجة التي تجعل بعض الزوجات يطلقن عليه «الخرس الزوجي»، والتعبير الأخير يحمل معنى اليأس من عودة الزوج إلى الكلام مرة أخرى، ويحمل بالإضافة لذلك بعض معاني العدوان والسخرية.

ولكي نفهم أبعاد هذا الموضوع يلزمنا العودة إلى حدود وآفاق العلاقة الزوجية، والتي يوجزها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وعبارة «مَنْ أَنْفُسِكُمْ» تذكرنا بحقيقة خلق حواء من آدم عليه السلام، وبالتالي فهي جزء منه في الأساس، يظلُّ يبحث عنه في شوق إلى أن يلقاه، واللقاء لا يكون سكنًا إلا إذا كان في علاقة زواج، كما هو واضح من الآية؛ فالزوجة سكن وطمانينة للزوج، والعلاقة بينها وبينه تقوم على أساس المودة والرحمة، وكلمة «بَيْنَكُمْ» في الآية تعني أن المودة والرحمة مشاعر متبادلة بين الطرفين، وليست صادرة من طرف واحد إلى الطرف الآخر، أي أن الزوجين يقومان بواجب رعاية العلاقة بينهما بتغذيتها (من الطرفين) بالمودة والرحمة.. وحين يتوقف أحد الطرفين أو كليهما عن أداء هذا الواجب؛ فإن علاقة السكن بينهما تهتز، وتصبح

مهدة بالانهيار.

إذن فلا بد من وجود حالة تواصل مستمرة (لفظية وغير لفظية)؛ لتوصيل هذه المشاعر بين الطرفين.. والمودة في المعاجم اللغوية تعني الحب، وفي المعنى الاصطلاحي (كما يقول الدكتور عادل صادق): هي اللين والبشاشة والمؤانسة والبساطة والتواضع والصفاء والرقّة والألفة والتآلف وإظهار الميل والرغبة والانجذاب والتعبير عن الاشتياق.

وبما أن معاني المودة تظهر في حالة رضا الطرفين عن بعضهما فكان ولا بد أن تكون هناك مشاعر أخرى تسود في أوقات عدم الرضا؛ لذلك كانت الرحمة، وهي تعني التسامح والتغاضي عن الزلات والأخطاء واحتواء الطرف الآخر في أوقات العسر والضيق.

بعد هذا الاستطراد نعود مرة أخرى إلى مسألة الصمت الزوجي، ونحاول رؤيتها بناءً على القواعد السابقة، وهي: السكن، والمودة، والرحمة وأدوات التواصل اللازمة للتوصيل المتبادل لهذه المشاعر والمعاني.

حين يذكر الصمت الزوجي يتبادر إلى

الذهن الكثير من المعاني السلبية مثل فتور المشاعر والملل والإهمال.. وغيرها، ويغيب الجانب الآخر لهذا الصمت، وهو الجانب الذي لا يحمل هذه الرؤية التشاؤمية، لذلك يمكن أن تقسم أسباب ودوافع الصمت الزوجي إلى قسمين:

أولاً: أسباب ودوافع إيجابية: مثل

- ١- معرفة كل طرف لرأي الآخر في كثير من الأمور نظراً لطول العشرة.
- ٢- النضج العقلي والعاطفي لكل من الطرفين، بحيث تستخدم كلمات قليلة في الحوار بينهما، ولكنها تحمل معانٍ ومدلولات ومشاعر أكثر عمقاً.
- ٣- نمو العديد من وسائل التواصل غير اللفظي مثل النظرة الودودة أو الابتسامة الحانية أو اللمسة الرقيقة أو الحضن الدافئ أو نظرة العتاب... إلخ.
- ٤- الاقتراب العاطفي والروحي بين الزوجين لدرجة لم تعد تحتاج إلى تأكيدات لفظية.
- ٥- الاقتراب لدرجة التوحد بينهما، وبالتالي فمن المنطقي ألا يحتاج الإنسان أن يكلم نفسه بصوت مسموع.

ثانياً: أسباب ودوافع سلبية: مثل

- ١- فتور المشاعر والذي قد يكون مؤقتاً أو مزمناً حيث تنطفئ جذوة الحب، وتصبح المشاعر باردة باهتة.
- ٢- فراغ العقل لأحد الطرفين أو كليهما بحيث لا يجد (أو يجدا) مادة متاحة للحديث.

٣- ءدم القءرة على التعبفر عن المشاعر سواء بوسائل لفظفة أو فر لفظفة أو التعبفر بلغة فر مفهومة.

٤- الملل.

٥- ءدم وءوء مساحاء مشركة للاهتام.

٦- تصور الرءل عن المرأة بأنها فر مستوى أءنى، وبالتالف لا فءء مبرراً للآاور معها؛ فهو فرءءها لآءمته (أو مآعته) وقرما فرء فقط.

٧- العءوان السلفف لءى أءء الطرففر أو كلفهما، مما فرءى إلى ما فسمى «صمآ العناء والآهل».

٨- وءوء ءالة اكآآاب لءى أءء الطرففر، والاكآآاب فءعل الشءص فر راغب فر الآءفث أو الآواصل مع الآرففر بأف شكل.

وآفر فشعر أءء الطرففر أن صمآ الطرف الآفر فرءعه أو فررقه علىه أن فرصارآه بءلك لفررف معنى وءواف صمآه، فرما آكون فءبافة أو سلبفة، وفر الآالففر فم النقاش والآاور للوصول إلى صفة ففاهم آعفء سرفان معانف الموءة والرآمة بفن الطرففر، لكي آرفوف منهما العلاقة الزوؤبفة، وآسآمر فوسآمر معها السكن والأمن والطمأنفة.

الزوج المسافر

الزواج رباط مقدس بين رجل وامرأة يعيشان معاً تحت سقف واحد، وتجمعهما مشاعر حميمة، وهما يقطعان مشوار الحياة «معاً»، وتنطبع في عقولهم ووجدانهم صورة لنموذج الأب (الرجل)، وصورة لنموذج الأم (المرأة)، وصورة لنموذج الأسرة، ومن هذه الصور يتكوّن لديهم مفهوم الحياة في تكاملها وتآلفها.

ولكن للأسف الشديد، ربما لا تسير الأمور دائماً على هذا الطريق؛ فللحياة ظروف وضرورات ربما تهدد هذه المنظومة الأسرية، وتؤدي إلى بعثرة هذا الكيان الجميل، فيعيش الأب بعيداً عن الأم والأولاد، وينشأ بذلك واقعاً جديداً يحمل تركيبات وتفاعلات نفسية غير متوازنة وغير صحيحة في كثير من الأحيان خاصةً إذا طال السفر، ولم تكن هناك عوامل اتصال أو تآلف كافية.. وفي هذه الحالة تستبدل كلمات «السكن».. «القرب».. «الرعاية».. بكلمات مثل: «الفراق».. «الوداع».. «الغربة».. «الشوق».. «الحنين».. «اللوعة».. «النسيان»... إلخ.

ازدياد ظاهرة سفر الأزواج بسبب طبيعة الحياة العصرية:

تتباين الإحصاءات من بلد لآخر حول نسبة الأزواج المسافرين، ولكنها تدور قريباً من الـ ٢٠٪، وهي نسبة غير قليلة، فتقريباً خمس الأزواج يغيبون عن زوجاتهم، وعن أسرهم بشكل متقطع أو دائم.

وهذه الظاهرة مرشحة للازدياد، حيث إن نمط الحياة العصرية

يتطلب حركة واسعة سعياً لطلب العيش أو العلم أو بحثاً عن عمل مميز أو ظروف أفضل للحياة، وبما أن الأسرة يصعب عليها كثرة الانتقال من مكان لمكان بسبب ارتباط الأبناء بمدارسهم، وأحياناً بسبب التكلفة المادية للأسرة في بلاد الغربية، لذلك نجد أن الزوج غالباً ما يسافر وحده على أمل أن يجتمع شمل الأسرة في فرصة مناسبة، وأحياناً تأتي هذه الفرصة وأحياناً لا تأتي.

إذن فظاهرة سفر الأزواج أصبحت من الانتشار بمكان، مما يستدعي دراستها، ومحاولة البحث عن حلول لمشكلاتها، خاصة أن تلك المشكلات كثيراً ما تكون مستترة تحت السطح، لا ييوح بها الزوج، ولا تبوح بها الزوجة؛ لأن هذه المشكلات تكون من الحساسية بالدرجة التي يصعب معها البوح.

ولقد قدر لي أن أرى الأزواج في وحدتهم أثناء سنوات سفري وغربتي، وحين عدت إلى بلدي وجدت من خلال عملي كطبيب نفسي كيف تعاني زوجاتهم، وهن يواجهن الحياة وحدهن أيضاً.. والأمر لا يتوقف على عام أو عامين، ولكنه يمتد إلى عشر سنوات أو عشرين سنة أو أكثر، وخلال هذه السنوات تحدث تغيرات مؤلمة في الطرفين، وتمتد هذه التغيرات إلى الأبناء، وبدرجات متفاوتة، ولكنها مؤثرة في كل الحالات، وأحياناً مزلزلة ومشوهة لتركيبتهم وفعاليتهم النفسية.

مزايا السفر والهجرة:

ربما يقول قائل: إذا كان السفر يفرق الأحباب، ويترك آثاره الصعبة

على نفوس الجميع بهذا الشكل.. إذن لماذا يسافر الناس؟! ولم يجلسون حيث هم وسط الأهل والأحباب تفادياً لهذه المشكلات وغيرها؟!!

والواقع أن للسفر فوائد كثيرة؛ فالسفر يتيح الرؤية لبلاد جديدة وأناس مختلفين، وبالتالي يوسع دائرة الإدراك ودائرة الوعي، ويتيح فرصاً هائلة للنمو والابتكار.. فكلما تعددت أسفار الإنسان اتسعت مداركه ورؤيته وأصبح أكثر قدرةً على المعرفة، وحل المشكلات والابتكار، وأكثر فهماً للحياة وللشعر.

وكثيرٌ من الأنبياء والمصلحين والعلماء هاجروا من مكان لمكان بحثاً عن ظروف أفضل لدعوتهم وأفكارهم، وارتبط نجاحهم بهجرتهم وسعيهم في الآفاق، وربما لو ظلوا في أماكنهم لماتت دعوتهم وفترت هممهم، فالحركة في الأرض تولد أفكاراً، وتولد مشاعراً، وتغير في داخل الإنسان وخارجه، وكما يقولون في المثل الشعبي: «الحركة بركة»، وكما يقول الشاعر:

الحركة بركة...

والسعي في أحشاء الزمن خلود

والقفز فوق قناة الخوف جسارة

والجري طهور

والطهر شرط الإيمان

وفي القرآن الكريم إشارة إلى ارتباط السعي في الأرض والهجرة بسعة

الرزق يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

وفي المثل الشعبي يقولون: «للسفر سبع فوائد» (ولو أنهم لم يقولوا ما هي هذه الفوائد السبعة).

إذن فالسفر لا يخلو من فوائد بل مليء باحتمالات الرؤية والمعرفة والرزق الأوسع، وما سنذكره لاحقاً من آثار سلبية هي بمثابة أعراض جانبية للسفر نحاول تلافيها بقدر الإمكان، والناس في كل زمان ومكان يتناولون الدواء على الرغم من وجود أعراض جانبية له، وذلك بناءً على قاعدة نسبة الفائدة: الضرر، فكلما ارتفعت هذه النسبة كان ذلك مبرراً لتعاطي الدواء، والسفر يقاس على هذا فإن رأى المسافر أن فوائد سفره تفوق أضراره؛ فلا بأس من سفره، وإن وجد عكس ذلك؛ فمراجعة الموقف واجبة.

دوافع السفر ودواعيه:

لكل مسافر دوافعه التي تجعله يتحمل ألم الفراق والانفصال عن واقع ألفه، وعن أحباب ارتبط بهم سنوات طويلة، ونذكر من هذه الدوافع ما يلي:

١- **السفر الاضطراري:** كالذي خرج من بلده بحثاً عن لقمة عيش لم يجدها في هذا البلد، أو بحثاً عن حياة كريمة افتقدتها، أو أنه تم نفيه أو استبعاده بناءً على ما يتبناه من أفكار ورؤى لا تتفق مع النظام السياسي القائم، خاصة تلك النظم الاستبدادية التي لا تحتمل الرأي الآخر، وهي

ليست ناضجة بالدرجة الكافية؛ لذلك تلجأ إلى استبعاد الآخر من مجال وعيها حتى تنعم بالراحة الزائفة.

٢- السفر سريعاً نحو النمو: مثل أن يسافر الإنسان طالباً للعلم أو بحثاً عن ظروف أفضل لعمل متميز أو أفكار إصلاحية خاصة إذا تأمد (أي: بان وظهر) له أن ذلك غير ممكن في بلد المنشأ.. وكما قلنا فإن السفر كثيراً ما يحمل فرصاً واسعة للنمو حيث تفتح مدارك المسافر، وتتحفز همته، وتنشط قدراته الكامنة؛ لأنه مع إحساسه بالغربة وإحساسه بالتهديد والضياع يفتح كل وسائل إدراكه، ويستنهض كل ملكاته وقدراته، ولو أضفنا إلى ذلك جدة الحياة من حوله واختلافها عما ألفه في بلدة الأصلي، كلُّ هذا يعطي فرصاً هائلة لامتداد الوعي وحركة الفكر والسلوك.

٣- السفر الهروبي: أحياناً يسافر الشخص هرباً من ظروف ضاغطة في البيت أو في العمل أو في الوطن ككل؛ فهو في هذه الحالة يجد أن وجوده في هذه الأجواء الضاغطة يؤثر سلباً على عقله أو وجدانه أو إنجازاته لذلك يفضل الهروب بحثاً عن ظروف أفضل للحياة، والهروب هنا يحمل من المعاني الإيجابية بقدر ما يحمل من المعاني السلبية؛ فهو ليس هرباً لراحة، وإنما هرباً لساحة أفضل، ولكن هذا الحل يترك السلبيات في البيئة الأصلية تتراكم دون حل، وربما تستوحش، وهذا ما حدث في كثير من دول العالم الثالث، حيث هرب منها خيرة أبنائها جراء ما لقوا فيها من عنت، وفروا بعقولهم وأحلامهم إلى العالم المتقدم، فأحرزوا نجاحات ممتازة، ولكن هذا الوضع فرغ

المجتمعات الطاردة لأبنائها من العناصر المحركة والمبدعة، وبالتالي ظلت في حالة جمود وتأخر.

٤- السفر وضبط المسافة الزوجية: في بعض الحالات يرى

الزوج أو الزوجة أن قربهما ليس مريحاً، بل إنهما كلما اقتربا زادت احتمالات الشقاق؛ لذلك يكون السفر نوعاً من ضبط المسافة أو ضبط جرعة العلاقة الزوجية بما يحتمله الزوجان؛ فهما لا يطيقان الاقتراب بأكثر مما تتيحه ظروف سفر الزوج.

٥- السفر كبديل للطلاق: حين تصبح الحياة غير محتملة،

ويصبح الطلاق هو الحل يظهر السفر كبديل للطلاق؛ فهو يتيح ابتعاد الزوجين عن بعضهما مع بقاء شكل اجتماعي للأسرة، وبقاء فرصة لتربية الأولاد في إطار هذا الشكل الجديد.

٦- السفر كبديل للثورة: بعض الناس تصل بهم الأحوال إلى

أنهم لم يعودوا يحتملون الأوضاع القائمة (سياسة كانت أو اقتصادية أو اجتماعية)؛ فيكون أمامهم خيارات: إما الثورة على الأوضاع القائمة بهدف تغييرها، وإما الانسحاب بعيداً عن هذا الواقع.. والانسحاب هنا ربما يكون انسحاباً تكتيكياً لحين وجود الفرصة المناسبة للتغيير من الخارج أو من الداخل.. ونسبة غير قليلة من الثوار والمصلحين تركوا أوطانهم لفترات متقاربة لالتقاط الأنفاس، ولاستكمال خطط ووسائل التغيير، وبعضهم نجح في ذلك والبعض الآخر اندمج في حياته الجديدة في الغربة، ونسى هموم الوطن ومتاعبه.

٧- **السفر كاحتجاج:** فالشخص هنا يسافر احتجاجاً على أوضاع أو ظروف تسبب له ضيقاً أو إزعاجاً أو فشلاً، وهو يريد أن يبعث من خلال سفره رسالة احتجاج إلى مَنْ يهمهم أمره (سواء الزوجة أو الأسرة أو المجتمع).

٨- **السفر كعقاب للذات أو للآخر:** وهذا اختيار عدواني يتوجه فيه العدوان إلى الداخل لعقاب ذاته، ويكفر عن أخطائه، ويخفف من مشاعر الذنب التي يشعر بها أو يتوجه بذلك العدوان إلى الخارج نحو الآخر، والذي يمكن أن يكون أحد الوالدين أو الزوجة أو غيرهم نتيجة إحساس بالظلم أو القهر من ناحيتهم أو إحساس بالجحود من جانب الأبناء، وكأنه يقول لهم: «سأسافر حتى تعرفوا قيمتي» «أو أسافر حتى أريحكم مني».

٩- **السفر كحل للزوج النرجسي:** هناك بعض الأزواج يحبون أن يعيشوا كما يحلو لهم؛ فلديهم مشاعر نرجسية عالية تجعل من الأسرة واحتياجاتها عبئاً ثقيلاً.. والزوج هنا غالباً ما يسافر بعد الزواج بفترة قصيرة، ويستمر سنوات طويلة في سفره، ويتعلل بصعوبة العودة، وسوء الظروف في بلده، واحتياجات الأسرة، وهذه العوامل كلها ربما تكون صحيحة لحد ما، ولكن العامل الأهم في سفره، وهو احتياجه لأن يعيش كما يريد، ولا يتحمل مسؤوليته أحد، ويكفيه أن يبعث مبعثاً من المال لزوجته وأولاده، يكفي احتياجاتهم المادية؛ فهو يقوم فقط بدور الممول للأسرة.

مراحل الغربة (سيكولوجية الفراق):



يمرُّ الناس بالمراحل التالية حين يفترقون، وكل مرحلة تختلف في شدتها ومدتها باختلاف الأشخاص والظروف المحيطة بهم ووسائل الدعم المتاحة، ومعنى الغربة بالنسبة لهم:

١- **مرحلة الصدمة:** وفيها يكون المفترقون في حالة ذهول، وتتابعهم مشاعر متضاربة وغير واضحة المعالم، وكأن هذه المشاعر الحادة والمؤلمة فوق الاحتمال؛ لذلك يكون الجهاز النفسي في حالة خدر مؤقت أشبه بالتخدير الذي يعطي لكي يتم قطع عضو من جسد الإنسان.

ولحظة الفراق وما يواكبها من صدمة انفعالية مزلزة يصورها الشاعر عبد الرحمن الأنودي في ديوانه «جوابات حراجي القط العامل في السد العالي إلى زوجته فاطمة أحمد عبد الغفار»؛ فيقول:

شهرين دلوقت..

من يوم ما عنيكى يا فاطنة..

بلت شباك القطر ..

لسوعتى بدمعك ضهر يدي..

ما عرفت ساعتها يا مراتى أضحك ولا أبكى..

ما عرفت ساعتها إذا كنت بعوز القطر يقف ولا يولي..

حسيت بعنيكي الحيرانة يا فاطنة بتقوللي ..

وتسكت ..

وتقول لي ..

حسيت واليد بتخطفه يد الجدعان ..

بالقلب في جوفي ما عارف إن كان بردن .. دفيان ..

٢- مرحلة الفقد: وفيها يتأكد فقد الحبيب بعد الإفاقة من صدمة

الفراق، ويتأكد الفراغ الذي تركه الحبيب المسافر في المكان، وفي الأحداث وفي القلب.

ويصور الأبنودي هذه المرحلة بقوله:

زوجي حراجي ..

وصلنا خطابك ..

شمينا فيه ريحة الأحباب ..

ربنا ما يوري حد غياب ..

ليه تتأخر كدة يا حراجي!؟

طب والني وكأن ورقتك دي

أول قنديل يتهز في جوف الدار

أول ندعة ضوء

الدار من غيرك يا ابو عزيزة .. هو

وعزيزة وعيد ..

من غيرك يا حراجي

زي اليتمى في العيد..

الواد على صغره حاسس بالغربة وبالبعد..

ولا عاد حتى بيطلع يلعب في القماري مع الولد..

أطلع وأخش .. أطلع وأخش ألقاه .. غيمان

وكأنه محروق له دكان.

ويقول لي: «فين يامه أسوان؟!»

وابا .. سابنا ليه يامه؟! ما يمكن زعلان؟! شهرين يا بخيل

ستين شهر وستين ليل؟

والنبي يا حراجي ما أطول قلبك

لأقطع بسناني الحطة القاسية فيه.

٣- مرحلة الإنكار: والنفس لكي تعيش حياتها اليومية تحاول

تفادي مشاعر الفقد المؤلمة؛ فتستخدم وسيلة الإنكار، وكأنها تضرب

بستارة تغطي هذه المشاعر، فنجد من افتقدوا الأحباب بعد فترة قد

اندمجوا في حياتهم اليومية، وكأنهم نسوا مشكلة الفراق بعض الشيء،

والإنكار وسيلة دفاعية نفسية تخفف على الإنسان بعضاً من ألم المواجهة

للأشياء التي تؤلمه، ولكي ينجح الإنكار أكثر يبدأ الناس في الاهتمام بالأمور الحياتية الظاهرية هرباً من المشاعر المؤلمة.

ويتضح هذا الإنكار في الخطاب التالي من «حراجي القط» لزوجته:

أما بعد فهذا ثاني خطاب

باعتين طيه ما قدرنا المولى عليه

وعنبتلك في ظروف الجمعة .. طرد

الطرحة والجزمة بتوعك ..

وكساوي عزيزة وعيد

وهنا يبدو الاهتمام بالاحتياجات الأسرية المادية بعيداً عن النواحي

العاطفية.

٤- **مرحلة الشوق والحنين:** ويعود في هذه المرحلة شوق جديد

وحنين شديد إلى الحبيب الذي غاب وابتعد، وتبدأ هذه المرحلة

بإحساس شديد بالوحدة بصورة الزوج المسافر في قوله:

عارفة يا مراتي الراجل في الغربة يشبه إيه؟!

عود دره وحداني .. في غيط كمون

حسيت بالخوف ناشع في عروقي ذي البرد

العين مشقوقة ..

والبال ..

ذي الغلة اللي بتسرب من يد الكيال
وندهت عليكم قلت: يا فاطنة أنا بانده

سامعاني؟

سامعيني يا عيال؟

والنبي لولا الخوف واللومة من الرجالة ..

لأركبت القطر وعدت

ويلي الشعور بالوحدة حالة من الاشتياق والرغبة في العودة، وتكثر
أحلام العودة في النوم واليقظة.

وفيما يلي صورة من حلم يقظة لزوج غائب (كما يصوره
الأبنودي):

مشتاق ليكي شوق الأرض لبل الريق

شوق الزعلان.. للنسمة.. لما الصدر يضيق

مشتاق.. وامبارح..

قاعدة.. قدامي عرق جديد.. وفي يدي الفحار

غابت عن عيني الحطة اللي أنا فيها.. وغابوا الأنفار تحت الأنفاق

ولقيت نفسي يا فاطنة طيرة مهاجرة

والطير جناحها مختار

ولقيت نفسي على بوابة جبلاية الفار..

بأخذ الأحباب بالحضن

كأنس كل دروب الجبلاية بديل توبي

طاوي كفوفي وباخبط بيهم على صدر الدار

قتلي مين؟

مسيت الدمعة في حزنك بأيدي

مسيت الدمعة اللي في حزنك..

ما عرف خدتك في حضاني.. ولا أنتى خدتيني في حضنك

وعزيزة وعيد حواليا يشدو الجلاية

ويشموا في غيبي وفي أيديا...

وقعدت بيناتكم .. وبكيت .. وضحكت.

لما لحت عصايي وتوبي .. وفاسي .. ومداسي

٥- مرحلة الحزن: وهي تحدث حين يتأكد الفراق، ويصبح

حتمياً، ويتلاشى الأمل في العودة، وهنا تسود مشاعر الحزن، والتي ربما تتحول إلى اكتئاب حقيقي.

وتظهر مشاعر هذه المرحلة في رسالة من زوجة (فاطنة) إلى زوجها

المسافر (حراجي) حيث تقول فيها:

مش عارفة ليلة أمبارحة تعبتني وبأيته عيانة ..

أنا واخداك ..

علشان لما أمد إيديا ألقاك جنبي ..

مالقاكش هناك

حتقول مال فاطنة؟ .. فاطنة زهقانة ..

أهو يوم فرحانة ويوم قلقانة ..

إحنا واخدينك يا حراجي عشان تبقى معنا ..

وعشان نبقى معاك ويا تخدنا معاك يا حراجي ..

يا ترجع تقعد في البيت دن معنا ..

البيت كده ذي ما كون بقى واسع وحيطانه طولانه ..

حتضيعنا الغيبة يا حراجي ..

الغيبة ما قولك مشتاقة بتبعد ..

الضلمة بقت في الليل بتسود قوي يا حراجي ..

وأنت مش راح تاجي ..

طب شوف لي حل ..

لأحسن من ليلة أمبارح ..

ذي ما كون دلقوا في نخاشيشي ..

مجرين خل..

مش طايقة أمشي في الدار..

وحاسة كأني مخنوقة.. وعقلي مندار.

٦- مرحلة النسيان: وحين لا يستجيب الحبيب الغائب لنداءات

العودة، واستغاثات القرب، يتجاوز الطرف الآخر مرحلة الحزن، ويبدأ في النسيان، وربما إقامة علاقة إنسانية جديدة تملأ الفراغ، وتعطي معنى جديداً للحياة.. وهذا منحني خطر في علاقة المحبين حيث يحمل هذا تهديداً للعلاقة القوية السابقة، واحتمالات تحولها إلى علاقة مصالح اجتماعية شكلية، وفي هذه المرحلة تتوارى المشاعر، ويحل محلها التعاملات المادية، وهذا ما تعكسه رسالة «فاطمة» إلى زوجها «حراجي»:

في جوابك أبقى تقوللي هم بيدولك كام في الشغل..

علشان نعرف بس!!

وإن كانت فايضة فلوس في صوابك..

ابعثهم ..

إحنا أولى بيهم..

بدل ما يدوبوا في جيبيك نزرع بيتنا..

القرش الناس بتجييه عشان تعمل عوزه..

مش علشان ترميه في الجيب..

يستنى عوزة لسة قاعد في الغيب.

التغيرات النفسية التي تحدث للزوج بسبب السفر:

١- العزلة: حيث يجد نفسه في بلد غريب يعيش في غرفته أو شقته وحيداً، ويقضي ساعات طويلة - بعد الانتهاء من عمله - لا يكلم أحد، ولا يكلمه أحد.

٢- افتقاد الجو الأسري: فلا زوجة تنتظره، وتعد له الطعام، وترعى احتياجاته، ولا أبناء يملئون البيت حيوية وحركة ومرحاً أو حتى صراخاً وعراكاً.

٣- الحرمان العاطفي والجنسي والاجتماعي: ففي حالة العزلة التي يعيشها لا يوجد أنيس، ولا توجد علاقة عاطفية حميمة، وحتى العلاقات الاجتماعية تكون آيةً في الندرة.

٤- كبت المشاعر مع ما يتبعه من مشكلات نفسية واجتماعية: فالزوج المحروم هنا يحاول كبت احتياجاته حتى يستطيع أن يواجه حياته العملية الجديدة، وهذا الكبت لا يلغي هذه الاحتياجات، وإنما يدفعها إلى غياهب العقل الباطن (اللاشعور)، فتؤثر في الحالة النفسية بشكل غير مباشر، وربما تؤدي إلى اضطرابات نفسية أو نفسجسمية.

٥- تقلص الاهتمام بالأسرة في حدود احتياجاتها المادية: فيصبح الدور الأبوي مختزلاً في دور الممول لهذه الأسرة،

وتغيب الأدوار الأبوية الأخرى من تربية وتوجيه ورعاية.

٦- فقد العلاقة الطبيعية بالزوجة والأبناء، وبالتالي فقد

التأثير فيهم: وذلك بسبب بعده عنهم، وتراجع دوره الأبوي واختزاله.

٧- حدوث فجوة بين مفاهيمه ومفاهيم زوجته وأبنائه: نظراً

لاختلاف البيئة التي عاش فيها كل منهم.

٨- احتمالات تحول مشاعره مع الوقت تجاه أخريات، أو

التورط في علاقاته غير مأمونة: ويساعد على ذلك

الإحساس بالعزلة والإحساس بالفراغ العاطفي، وغياب الرقابة الأسرية والاجتماعية على السلوك.

٩- وحين يعود هذا الزوج المسافر في إجازة أو يعود بشكل نهائي

يشعر بغربة شديدة مع زوجته وأبنائه: لأنه مختلف عنهم في

كل شيء، ولأنهم رتبوا حياتهم لسنوات طويلة بطريقتهم

الخاصة بعيداً عن تدخله.

التغيرات النفسية التي تحدث للزوجة بسبب سفر الزوج:

١- الحرمان العاطفي والجنسي والاجتماعي: فغياب الزوج يعني

غياب تلك العلاقة الحميمة، ويعني تقوقعاً وعزلة اجتماعية، تفرسها

أعراف وتقاليد وأخلاقيات على الزوجة التي غاب عنها زوجها.

٢- كبت مشاعرها طول الوقت، وما يتعب ذلك الكبت من

ضعف المشاعر أو تشوهها أو تحولها إلى أعراض نفسية أو نفسجسمية.

٣- فقد الاهتمام بالأمر الأنثوية كالزينة، واستخدام العطور، والاهتمامات الشخصية الأخرى.

ويصور الشاعر نزار قباني هذا الموقف على لسان امرأة غاب عنها حبيبها فراحت تقول:

ارجع إليّ .. إليّ

فبعذك لا عقد أعلقه

ولا لمست عطوراً في أوانيتها

لمن صباي .. لمن

شال الحرير .. لمن

ضفائري منذ أعوام أربيتها

ارجع كما أنت .. كما أنت

صحوا كنت أو مطرا

فما حياتي أنا؟

إن لم تكن فيها

٤- تحمل مسؤولية البيت والأولاد بالكامل مع ما يتبع ذلك من

شعور بالإرهاق والعصبية الزائدة، وفقد السيطرة، والقلق الزائد.

٥- الاسترجال والخشونة، وذلك لمواجهة ضغوط وغوايات المجتمع، وأيضاً لأحكام السيطرة على الأبناء خاصة الذكور في مرحلة المراهقة.

٦- فقد الكثير من حنان الأمومة ورقتها بسبب الانشغال بالمسئوليات، والخوف على الأبناء من الضياع، وبسبب لعب دور الأب والأم معاً.

٧- المبالغة في الخوف على الأبناء، وفرض الحماية الزائدة عليهم.

٨- حدوث فجوة في الاهتمامات والمفاهيم بينها وبين الزوج، وهذه الفجوة تزداد مع الوقت، وتصل إلى درجة الإحساس بالغربة الشديدة بينهما.

٩- الإحساس بالضييق من تدخلات الزوج الغربية على أسلوب إدارتها للأسرة.

١٠- احتمالات تحول المشاعر أو التورط في علاقات غير مأمونة.

١١- الإحساس بالغربة (وأحياناً الضيق والنفور) تجاه الزوج حين يعود.

١٢- بعض الحالات تنتهي بالطلاق في حالة عودة الزوج النهائية.

وتصور إحدى الزوجات محتتها بسبب سفر زوجها في تلك الرسالة التالية، والتي وضعت لها عنوان: «صرخة من زوجة مسافر»:

«معذرة يا زوجي الحبيب إن كانت هذه الصرخة أفلتت مني الآن،

فقد حاولت كتمانها سنين طويلة عنك وعن الناس وحتى عن نفسي، ولكن يبدو أنني قد ضعفت.. لا ليس الضعف الذي تظنه أو تخافه، وأنت في غربتك، ولكنني أشعر بالتعب والإرهاق بعد هذا المشوار الطويل.

زوجي الحبيب، تذكر أنك تزوجتني منذ عشر سنوات، وكنت في غاية الفرح ليلة الزفاف، ولكن الغربة خطفتك مني بعد عشرين يوماً من هذه الليلة، وقد مرت هذه الليالي العشرون، وكأنها حلم خاطف، فما كدنا نقرب حتى ابتعدنا.. لم تتح لي الفرصة لكي أتوافق مع طباعك، لم استطع التعرف على الأشياء التي تحبها، والأشياء التي تكرهها، وكل ما أذكره أن السنين كانت تمر ثم تحضر إلينا كل عام، فتقضيه بيننا كزائر عابر، ثم تبتلعك ظلمات الغربة من جديد.. ولا أخفيك يا زوجي الحبيب أنه بالرغم من لهفتي لعودتك؛ فإنني كنت أخشى هذه العودة؛ لأنني أكره لحظات الفراق مرة أخرى.. ولا أخفيك أنه رغم اشتياقي لحضورك إلا أنني كنت أشعر بالضيق في وجودك؛ لأنني ربت حياتي على أنك غير موجود، وكانت احتياجاتك ومطالبك عبئاً عليّ، وأنا آسفة ونادمة على هذه المشاعر.. ولكن كما قلت لك في بداية الرسالة أنها صرخة أفلتت مني رغماً عني.

ساعني إن كنت طلبت منك العودة في المكاملة الأخيرة، وساعني إن كان صوتي حزيباً دائماً، فلست أدري كيف طلبت منك ذلك، وأنا أعرف أن مصاريف البيت والأولاد لا تسمح بعودتك الآن، ولكن الكلمة أفلتت مني، فقد كنت أشعر وقتها بوحدة شديدة، وباحتياجي

لك كزوجة (طبعاً أنت تفهم ماذا أقصد).. ولا أخفي عليك أنه تتابني أحياناً لحظات أشعر أنني في حاجة لأن أترين، فأقف أمام المرأة، وأمشط شعري، وألبس أجمل ثيابي، وأضع العطور التي ترسلها لي، وأمشي فرحة بنفسني في غرفة نومي، وما هي إلا لحظات، وأفيق من حلمي، ويتابني حزن شديد حين أشعر بوحدتي التي لا أعلم متى ستنتهي، فأخلع ملابسي، وأغسل وجهي من مساحيق الزينة، ومن العطور، وأشعر بالندم أنني فعلت ذلك، وأحمد الله أن لم يرني أحد الجيران أو الأقارب؛ فيظنوا بي الجنون.

زوجي الحبيب، لقد مرت أحلى سنين عمري، وأنت بعيد عني، وأخشى عندما يحين وقت العودة أن تجدني امرأة أخرى قد غيرها الزمن وهزمتها الأحزان، أو أراك رجلاً غير الذي عرفته.. ربما تقول عني: أنني مجنونة، لو قلت لك: أنه حين تعود فربما نحتاج إلى فترة خطوبة جديدة نتعرف فيها على بعضنا، ثم نقرر إن كنا نصلح لبعضنا أو لا، وربما نحتاج إلى عقد زواج جديد، فقد غيرت فينا السنون؛ فلست أنا الآن المرأة التي عرفتها منذ عشر سنوات، وبالتأكيد لست أنت الرجل الذي عرفته من عشر سنوات، وكلانا تغير بعيداً عن الآخر.

زوجي الحبيب، أشكو في هذه الأيام من عصبية زائدة، فلم أعد أتحمّل كما كنت، ربما مسئولية الأولاد، فمطالبهم ومشاكلهم أصبحت تثير أعصابي، وهم لا يخافون مني؛ لأنني امرأة، وخاصةً ابنتنا الأكبر؛ فهو كثير العناد، وربما لو كنت أنت هنا لعملوا لك ألف حساب.

أرجو ألا تغضب من كلامي؛ فأنا أعلم أنك مرغم على الغربة لكي توفي احتياجاتنا، وأذكر أنك حين فكرت في العودة منذ خمس سنوات، وعشت هنا لمدة ثلاثة شهور كنت تخرج كل يوم لتبحث عن عمل دون جدوى، وكنت ترجع إلى البيت يائساً حزيناً، وأصبحت شديد العصبية؛ لذلك تمنيت وقتها أن تسافر مرة أخرى كي لا أراك في هذه الحالة.

ولست أدري متى تتحسن الأحوال، أو متى تعود، ولكنني أشعر باشتياق، ولقد تذكرت سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يسأل ابنته حفصة -رضي الله عنها- عن المدة التي تتحملها المرأة بعيداً عن زوجها؛ فقالت له: أربعة أشهر، فكان يأمر بالألّا يطيل الرجال غيبتهم عن زوجاتهم أكثر من أربعة أشهر، وأنا أشعر بالأسى كلما تذكرت هذه القصة، فإذا كانت الزوجات المؤمنات الصحابيات لا يستطعن احتمال غياب أزواجهن المجاهدين في سبيل الله أكثر من أربعة أشهر؛ فكيف أستطيع أنا احتمال غيابك عشر سنوات؟!

وأخيراً أرجو ألا يمزقك هذه الكلام، وأن تلتفت لعملك، ونحن دائماً في انتظارك.

زوجتك وأولادك

هذه الرسالة (الصرخة) أنقلها للقارئ كما

وصلتني لعله يكون أقدر مني على توصيلها لمن

يهمه الأمر (فعلاً).

مشكلات الأبناء والبنات الناجمة عن السفر:

١- غياب نموذج الأب مع ما يتبعه من مشكلات نفسية لدى الأولاد والبنات؛ فهناك مراحل في النمو النفسي للولد أو البنت تحتاج لوجود هذا النموذج، لكي يصبح النمو سليماً، فالولد يحتاج لأن يتمص دور الأب حتى تنمو فيه الصفات الذكورية، والبنت تحتاج لأن تنمو بداخلها مستقبلات للجنس الآخر ممثلاً في الأب، وتتعلم كيف تتعامل معه، وكيف تشعر به.

٢- غياب النموذج الكامل للأسرة، ذلك النموذج الذي ينطبع في عقل ووجدان الأولاد والبنات، الأسرة المكونة من أب وأم وأبناء يعيشون «معاً»؛ فإذا لم تكن الأسرة كاملة في الواقع انطبع في نفس الأبناء نموذجاً ناقصاً يؤثر فيما بعد في تصوراتهم للحياة الأسرية، وبالتالي يؤثر في نجاحهم في حياتهم الزوجية حيث يسهل عليهم الاستغناء عن الطرف الآخر؛ لأنهم جربوا الحياة بدونه.

٣- الارتباط الشديد بالأم واحتمالات الاعتمادية المطلقة عليها.

وعلى الرغم من هذا الارتباط إلا أننا نلاحظ أحياناً وجود مشاعر عدوانية نحو الأم بسبب خوفها الشديد عليهم، وحماتها المفرطة لهم، وقيامها بدور الأب والأم معاً، مما يفقدها الكثير من حنان الأمومة وورقتها.

٤- الإغداق المادي المبالغ فيه من الأب كتعويض عن غيابه عنهم مع ما يتبع ذلك من مظاهر ترف وانحراف.

٥- غلبة المفاهيم والقيم المادية في التعامل مع الأب والأم، ومع بقية الناس.

٦- الإحساس بالغربة تجاه الأب حين عودته، مع عدم تحمل تدخلاته الغريبة على سياق حياتهم الذي تعودوه.

الجوانب الشرعية للموضوع:

هناك قاعدة شرعية مهمة وردت في قول رسول الله ﷺ وهي: «لا ضرر ولا ضرار» (مسند أحمد بن حنبل (٣١٣/١)؛ لذلك إذا تضررت الزوجة من غياب زوجها ضرراً بالغاً وجب إزالة هذا الضرر.

واختلف الفقهاء في التفريق بسبب الغيبة المنقطعة ما بين مجوزين، ومانعين، فقد ذهب الأحناف (الهداية (٢/١٨١ - ١٨٢)، والشافعية (الأم (٥/٤١) إلى أنه لا يجوز لامرأة الغائب أن يفسخ نكاحها بسبب غيبة زوجها طالقت هذه الغيبة أم قصرت، بعذر كانت أو بغير عذر.

وفي الجانب المقابل ذهب الحنابلة والمالكية إلى جواز التفريق بسبب الغيبة بيد أن الحنابلة بنوا حكمهم على التفريق للغيبة على نوع الغيبة، فإذا كانت الغيبة لعذر، كالخروج للدراسة أو التجارة؛ ففي هذه الحالة لا يجوز للزوجة طلب التطلق مهما طالقت مدة غيبة زوجها، ما دامت نفقتها حاضرة.

أما إذا كانت غيبة الزوج بلا عذر، وتضررت المرأة من هذه الغيبة، ففي هذه الحالة يجوز للقاضي تطليقها بناءً على طلبها، وذلك بعد مضي ستة أشهر فأكثر من الغيبة، وبعد أن يكتب إليه القاضي يخيره بين

الحضور إليها أو نقل زوجته إليه، أو التفريق بينهما (عن كتاب زوجة الغائب للدكتور: محمد عبد الرحيم محمد، دار السلام للطباعة والنشر).

هذا ولعله من المفيد هنا أن نشير إلى أن توقيت المدة التي يجوز بعدها طلب التطلق عند أحمد بستة أشهر من غياب الزوج، يرجع إلى تشريع حدث في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك حين كان يحرس المدينة، فسمع صوت امرأة في بيتها، وهي تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه وطال عليّ أن لا خليل الأعبه
فوالله لولا خشية الله وحده لحركّ من هذا السرير جوانبه

وعندئذ سأل عنها عمر رضي الله عنه، ف قيل له: هذه فلانة، زوجها غائب في سبيل الله، فأرسل إليها امرأة تكون معها، وبعث إليها زوجها فأقفله، ثم دخل على حفصة، فقال: يا بنية، كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: سبحان الله، مثلك يسأل مثلي عن هذا، فقال: لولا أنني أريد النظر للمسلمين ما سألتك؟ فقالت: خمسة أشهر، ستة أشهر، ومن ثم فوقت للناس في مغازيهم ستة أشهر، يسيرون شهراً، و يقيمون أربعة، ويسيرون شهراً راجعين (المغني (٨/١٤٣).

هذا عن رأي الحنابلة، أما المالكية (انظر: أحكام الأسرة، د. سلام مذكور (٢/١٨٣ - ١٨٤)؛ فإنهم يرون أن المرأة إذا تضررت من غياب زوجها، فخشيت على نفسها الوقوع في الزنا؛ ففي هذه الحالة يجوز لها طلب التفريق بسبب غيبة زوجها سواء أكانت هذه الغيبة لعذر أو لغير عذر.

توصيات ومقترحات:

- ١- زيادة التواصل بين الزوج المسافر وبين أسرته بكل وسائل الاتصال، مع الاستفادة من التقنيات الحديثة مثل المحادثة (Chatting) على الإنترنت بالصوت والصورة مع أفراد الأسرة، بما يعادل ساعة يوميًا، وكأنها جلسة عائلية منتظمة.
- ٢- السعي نحو جمع شمل الأسرة في أقرب فرصة ممكنة، قبل أن يتعرض أفرادها للتغيرات السلبية التي سبق ذكرها.
- ٣- تنظيم عقود العمل في الخارج بما يسمح بأكثر من زيارة في السنة، وبما يتيح وجود الأسرة مع عائلها.
- ٤- دعم أسرة المسافر من خلال العائلة الأكبر، ومن خلال الجمعيات الأهلية المختصة بالجوانب النفسية والاجتماعية.
- ٥- المناداة بأن يصبح «جمع شمل الأسرة» ضمن حقوق الإنسان التي تتبناها الهيئات والمؤسسات الدولية.



ضرب الأزواج للزوجات

ظاهرة ضرب الأزواج للزوجات تعتبر من الظواهر الشائعة للأسف الشديد في كل المجتمعات والثقافات، نسبتها تتراوح بين (٢٠ إلى ٥٠%) حيث تزيد في الطبقات الاجتماعية والتعليمية الأدنى.



وتختلف شدة الضرب في حالة لأخرى؛ فهناك حالات بسيطة لا تتعدى الدفع باليد، وهناك حالات شديدة ربما تترك إصابات بالغة في الجسد، وربما تؤدي إلى الوفاة.

وضرب الزوج لزوجته مرتبط بنظرتهم للمرأة وكرامتها كإنسانة، ومرتبطة عند بعض الناس بمفاهيمهم الثقافية والدينية والبيئة التي نشؤوا فيها.

وفي الثقافة الشرقية والعربية على وجه الخصوص يشكّل الدين مرجعية هامة للسلوك؛ لذلك سنحاول رؤية موضوع ضرب الزوجات من المنظور الديني.

قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله»، فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: «ذئرن النساء على أزواجهن»؛ فرخص في ضربهن، فأطاف بآل بيت رسول الله ﷺ نساءً كثيرٌ يشكون أزواجهن، فقال: «لقد أطاف بآل بيت محمد نساءً كثيرٌ يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم» (رواه أبو داود

بإسناد صحيح).

ولو تأملنا هذا الحديث جيداً لوجدنا أن القاعدة فيه هي عدم ضرب النساء «لا تضربوا إماء الله»، ولكن لما اشتكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من تمرد بعض الزوجات رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضرب كضرورة لإصلاح بعض النفوس الشاذة، فاستغل بعض الرجال ذلك، ووسعوا الرخصة والضرورة، فأساءوا بذلك لهذه الرخصة، فنبههم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاعتدال، وإلى أن الخيرية تقاس بمدى إحسان الرجل لزوجته، ولم يثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ضرب أحداً من زوجاته، رغم أنه قد حدثت مشكلات مثل التي تحدث في كل بيت، ولكنه صلى الله عليه وسلم قدوة للرجال في حسن المعاملة، يقول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

ويستذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الذي ورد في الصحيحين ضرب الرجل لزوجته، وكيفية الجمع بين ذلك وبين العلاقة الحميمة بينهما؛ فيقول: «أيضرب أحدكم امرأته كما يضرب العبد، يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره».

وإن أكثر الفقهاء قد ربطوا الضرب بالنشوز الشرعي كعصيان الرجل في الفراش، والخروج من الدار بغير عذر، وترك الفرائض الدينية؛ فهو كالعلاج بالكي لا يذهب إليه الرجل إلا لضرورة تحتمل ألمه ومرارته.

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن الضرب إلا للضرورة، فقد وضع حدوداً لذلك فقال: «ضرباً غير مبرح»، وقد سأل عطاء ابن عباس:

«ما الضرب غير المبرح؟»، فقال: بالسواك ونحوه.

والضرب رمز للإيذاء، ولذلك نوسّع الرؤية، ونسأل الرجال أن يكفوا عن كل ألوان الإيذاء كالضغط النفسي والتحقير والمكاييدة والإهمال والهجر والقهر، والاستبعاد والإلغاء... إلخ.

ويجب أن يعلم الزوج أن إيذائه لزوجته سيرتد عليه إيذاءً أو يتحول إلى أطفاله الذين يحبهم؛ فالمرأة المقهورة المستعبدة سوف تنقل قهرها وظلمها إلى أبنائها؛ فتسيء معاملتهم وتضربهم وتقهرهم، بمعنى أنها تزيج عدوان زوجها نحوهم، والإيذاء عموماً يخرج بالعلاقة بين الرجل والمرأة من دائرة المودة والرحمة التي هي أساس تلك العلاقة في حالة صحتها.

وبعض الرجال لديهم تصور بأن المرأة لا ينصلح حالها إلا بالضرب، وأن المرأة أحياناً تستمتع بهذا الضرب، وتشعر معه برجولة زوجها، وهذا تصور عقيم لا ينطبق إلا على فئات شاذة من النساء لديها ميول ماسوشية، ولذلك تحتاج لرجل لديه ميول سادية، وهذا الوضع المرضي لا ينطبق على الأسوياء من الرجال والنساء.

والمرأة السوية لا تحب ولا تقبل أن يضربها زوجها، وحين يحدث ذلك؛ فإنّ مساحة الحب والاحترام في نفسها تتقلص تجاهه، وربما تنعدم؛ لأن ذكريات الضرب والإيذاء تحرق في كل مرة مساحة من حبها لزوجها واحترامها له.

وقد يقول قائل: ولماذا ذكر الضرب في القرآن والسنة من

الأساس إذا كان غير محبذ دينياً؟

والجواب: أن هذا الخيار (الضرب) يستبقى كأحد الوسائل

التربوية والتهديبية الأخيرة، والتي ربما تحتاجها بعض النفوس الجانحة أو الشاذة في الرجال أو النساء على السواء، حين تفشل كلُّ الوسائل الطبيعية المعتادة في إصلاح هذه النفوس.. ولا ننسى أن الضرب شرع في الحدود الشرعية للرجال والنساء على السواء (في شرب الخمر، وفي زنا غير المحصنين، وغير المحصنات، وفي تعزيرات مختلفة).

ضرب الزوجات للأزواج

(العنف العكسي)

حجم الظاهرة:

كنا وما زلنا نحاول تلافي ضرب الأزواج لزوجاتهم، وتخفيض وتيرة العنف الأسري على وجه العموم أملاً في تخفيف حدة التوتر الاجتماعي، وصولاً إلى عالم أكثر سلاماً وأماناً، ولكننا فوجئنا بتغير جديد يظهر على السطح من خلال إحصاءات تتجمع من هنا وهناك، تعكس صرخات أزواج تضربهم زوجاتهم بما ينذر بتحول «سي السيد» إلى «سي سوسو».



ويبدو أنها ظاهرة عالمية؛ ففي الهند كانت نسبة الأزواج «المضروبين» ١١٪، وفي بريطانيا ١٧٪، وفي أمريكا ٢٣٪، وفي العالم العربي تراوحت بين (٢٣٪ إلى ٢٨٪)، وتبين أن النسب الأعلى تكون في الأحياء الراقية والطبقات الاجتماعية الأعلى، أما في الأحياء الشعبية؛ فالنسبة تصل إلى ١٨٪ فقط، وهذا الفرق بين الطبقات يمكن أن يكون فرقاً حقيقياً بمعنى أن المرأة في الطبقات الاجتماعية الأعلى استفادت أكثر من جهود تحرير المرأة، وتمكين المرأة؛ فعلا صوتها «وسوطها» أكثر من المرأة في الأحياء الشعبية، والتي لم تصلها تلك

الجهود، وما زالت تنظر لزوجها باحترام أكثر، ولا تهفو إلى منافسته أو مزاحمته أو القفز على مكانته، وقد يكون فرقاً إحصائياً فقط، حيث إن الطبقات الاجتماعية الأعلى يسهل تسجيل حالات الاعتداء فيها أكثر حيث الصراحة أكثر، والشجاعة في الاعتراف بما حدث تكون أكثر احتمالاً.

الأسباب:

والبعض يعزو هذا العنف الأنثوي إلى حالة الانتقال من مرحلة تحرير المرأة (التي كان يحلم بها قاسم بك أمين) إلى مرحلة تمكين المرأة (التي يعمل من أجلها رموز كثيرة في المجتمع المحلي والعالمي)، وتساندها الأمم المتحدة بكامل تشكيلاتها وهيئاتها، وقد أدى هذا إلى استيقاظ عقدة التفوق الذكوري لدى الرجل (الشوفينية)؛ فراح يمارس عدواناً سلبياً ضد المرأة بأن يكايدها أو يتجاهلها أو يهملها، فهبت هي لتؤدبه على كل هذا.

وهناك تفسير آخر يرجع الظاهرة إلى

حالة التفوق الأنثوي الملحوظة في السنوات

الأخيرة، والتي يمكن رصدها على عدة

محاور منها على سبيل المثال:

١- أكبر عدد من العشرة الأوائل في الثانوية العامة من الفتيات.

٢- يلاحظ بوضوح أن فتاة اليوم أكثر نضجاً والتزاماً من نظيرها الفتى؛ فهي تحاول أغلب الوقت أن تفعل شيئاً مفيداً في حين

يقضي هو معظم وقته على الـ «كوفي شوب» أو «الإنترنت كافي» يمارس أنشطة ترفيهية.

٣- نسبة حضور المحاضرات والندوات تميل كثيراً في صالح الإناث، وهن أكثر حرصاً على الفهم والمتابعة والاستفسار والاستفادة.

٤- أصبحت شخصية المرأة أكثر محورية في حياة أبنائها وبناتها؛ فهي تعرف كل التفاصيل عن الأسرة واحتياجاتها، أما الرجل فيعيش على هامش الأسرة؛ فهو يخرج للعمل ثم يعود ليتناول طعامه، ثم يقرأ الجريدة أو يشاهد التلفزيون، وليس لديه طاقة أو صبر لمتابعة مشكلات الأبناء والبنات.

٥- المرأة التي يسافر زوجها لفترات طويلة، ويترك لها مسئولية البيت بالكامل تكتسب بعد فترة صفات القوة والحزم والصرامة لكي تستطيع الحفاظ على تماسك الأسرة، وتسيطر على نزعات الأبناء ومشكلاتهم، وأما الزوج؛ فيكتفي بدور الممول لهذه الأسرة، ويأخذ بالتالي مساحة أقل في وجدان زوجته وأبنائه، ويصبح بالتالي أكثر عرضةً للهجوم وانتهاك المكانة.

٦- الاستقلال الاقتصادي لبعض النساء، والذي أعطاهن شعوراً بالندية والمنافسة للرجل؛ فهي تشعر أنها تعمل مثله (وربما أكثر)، وتكسب مثله (وربما أكثر)، لذلك ترفض منه أي وصاية، وترفض أن يكون له ميزة أو تفوق عليها.

وفي مقابل هذا التفوق الأنثوي الملحوظ نجد تراجعاً ملحوظاً أيضاً في دور الرجل يعزوه علماء النفس والاجتماع إلى كثير من الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية أدت إلى شعور الرجل بالإحباط والقهر؛ فهو أكثر إحساساً ومعاناةً تجاه الاستبداد السياسي والقهر السلطوي، وهو أكثر مواجهةً للأزمات الاقتصادية والاجتماعية، وأقل تحملاً لها من المرأة، ولهذا نجد أن شخصية الرجل قد اعترتها الكثير من مظاهر التآكل والضعف والتراجع، في حين صمدت المرأة أكثر لهذه الظروف، وتكيفت معها، وتجاوزت تأثيراتها الضارة، بل واستفادت منها في بعض الأحيان، وحين أحس الرجل بكل هذا (بوعي أو بغير وعي) راح يتعامل مع المجتمع ومع المرأة بطريقة العدوان السليبي؛ فظهرت عليه علامات اللامبالاة والتراخي والصمت السليبي والتجاهل والمكيدة والعناد... إلخ.

سمات الضرب الأنثوي:

وضرب الزوجة لزوجها قد يكون حدثاً عارضاً في لحظة انفعال شديدة تصرفت فيها الزوجة بدافع من القهر الشديد الواقع عليها من زوجها، وقد يكون متكرراً منذ فترة طويلة، وقد يكون سلوكاً معتاداً ومزمناً في العلاقة بين الزوجين.

والصورة النمطية للمرأة أنها كائن رقيق، وأنها الأضعف في علاقتها بالرجل الذي يتفوق عليها على الأقل مالياً وجسدياً في أغلب الأحيان (وليس كلها)، وهذه الصورة ربما تجعل تصور امرأة تضرب

زوجها أمراً مستبعداً أو على الأقل مستهجنًا أو طريفاً، ولكن في الواقع حين تتعرض المرأة لحالة من القهر والاستبداد والإهانة والقسوة لمدة طويلة، أو حين يمارس زوجها معها ألوان من العدوان السلبي؛ فإنها تتفجر بداخلها قوة انتقام هائلة، تمنحها طاقة عدوانية غير متوقعة لأحد، وهذه الطاقة لا تمكنها فقط من الضرب، ولكن أحياناً تمكنها من القتل بأبشع الوسائل (تقطيع الزوج، وتعبثه في أكياس!!).

ومع هذا فضرب الزوجة لزوجها يكون على الأغلب ضرباً غير مبرح، وكأنه فقط تعبير رمزي عن الشعور بالظلم والإهانة، وغالباً ما يكون ذلك بيديها.. وأحياناً تستخدم المرأة بعض الأسلحة الخفيفة المتاحة لها كالحذاء أو المنفضة أو المقشة أو أي شيء من أدوات المطبخ، وإذا وصل الشعور بالقهر أو الشعور بالغيرة ذروته؛ فإنها ربما تنتقل إلى استخدام أسلحة ثقيلة وخطرة مثل السكين والساطور.. ومن حسن الحظ أن المرأة العربية حتى الآن لم تتطور أسلحتها فما زالت بعيدة عن استخدام الأسلحة النارية، ولكن مع هذا لا أحد يعرف ماذا تخبئه الأيام القادمة.

أنماط الضرب النسائي:

والآن نحاول أن نرصد أنماطاً من الضرب النسائي، ودوافع تلك الأنماط:

١- **ضرب المزاح:** بعض الزوجات يملن إلى المزاح باليد مع الزوج، ويجدن متعة في ذلك، وربما يبادهن أزواجهن نفس المتعة خاصة أن

المزاح باليد (المناعشة) يلغي الحواجز بين الاثنين، ويعطي شعوراً بالألفة الزائدة، وأحياناً يحتاجه بعض الأزواج أو يحتاجه بعض الزوجات لتحريك مشاعر أكثر عمقاً وحرارةً، وقد يكون ذلك تمهيداً لما هو أعمق.

٢- الضرب الدفاعي: وهنا تقوم المرأة بالردّ على عدوان زوجها، فإذا لطمها على وجهها شعرت بالإهانة، فردت له اللطمة مباشرةً أو دفعته بعيداً عنها أو حملت عصا أو سكيناً في مواجهته بهدف وقف عدوانه أو الرد عليه، والزوجة في هذه الحالة لا تمارس العدوان على زوجها إلا دفاعاً عن نفسها، ولكن لا تبدأ هي أبداً بالعدوان.

٣- الضرب الانتقامي: وهو نتيجة قهر مستمر أو استبداد بالرأي أو قسوة زائدة من جانب الزوج أو حالة غيرة شديدة أشعل نارها في قلب زوجته، والزوجة في هذه الحالة لا تستجيب مباشرةً، وإنما تتحمل وتتحمل حتى يتراكم بداخلها مخزون كبير من العدوان، والرغبة في الانتقام والقصاص، إلى أن تحين اللحظة التي تبلغ فيها هذه المشاعر ذروتها، فينطلق العدوان من داخل المرأة كالطوفان أو الإعصار المدمر، وهنا يأخذ العدوان صورة شديدة القسوة وغير متوقعة من المرأة.

٤- ضرب الزوجة السادية للزوج الماسوشي: حيث تكون الزوجة ذات صفات سادية، فيستمتع بضرب زوجها وإهاتته، وغالباً ما يكون الزوج لديه سمات ماسوشة، فيستمتع بهذا الضرب (على الرغم من شكواه الظاهرية من ذلك).. وفي هذا النموذج نجد أن سلوك ضرب

الزوجة شيء متكرر في العلاقة الزوجية، ومع هذا تستمر العلاقة؛ لأن الطرفين في الحقيقة يستمتعان بذلك (أيضاً على الرغم من شكواهما الظاهرية).

٥- ضرب الزوجة المسترجلة للزوج السلبي الاعتمادي: وهي

درجة أقل من السابقة؛ فالمرأة هنا أكثر قوة وأكثر سيطرةً، والرجل ضعيف ومنسحب، وبالتالي تجد المرأة أنها تملك دفة القيادة، وبالتالي تملك التوجيه والإصلاح لأي اعوجاج في البيت، بما فيه اعوجاج الزوج، فإذا حدث منه خطأ؛ فهي لا تجد غضاضة في أن تقوم وتربيته، وهو يتقبل ذلك أو لا يتقبله، ولكنه لا يستطيع الاستغناء عنها وعن حمايتها له، ولهذا يتكرر سلوك الضرب من الزوجة لزوجها دون حدوث انفصال أو طلاق؛ لأن العلاقة هنا تحمل مصالح متبادلة واحتياجات متوازنة رغم أنها غير مقبولة اجتماعياً، وهذا ما يسمى «سوء التوافق المحسوب».

وأحياناً يكون استرجال المرأة طبيعة فطرية فيها، وأحياناً أخرى يكون مكتسباً بسبب إهمال الرجل لمسئولياته، وتحليه بصفات السلبية والاعتمادية، مما يجعل الزوجة تتحمل مسؤولية الأسرة بالكامل، وشيئاً فشيئاً تكتسب صفات القوة والخشونة؛ لكي تحافظ على استقرار الأسرة، فالاسترجال في هذه الحالة ليس صفة أساسية فيها، ولكنه من صنع الرجل، لذلك يجني ثماره المرة، والمشكلة في هذا النمط وسابقه ليست في التأثير النفسي للضرب على الزوج (فهو في الحقيقة متقبل ذلك برضا أو عدم رضا)، ولكن المشكلة هي في تأثير ذلك على صورة

الأب أمام أبنائه، وأيضاً في صورة الأم؛ لأن هذا يؤدي إلى صورة تربوية مشوهة ومعكوسة، تتطوع في أذهان الأبناء والبنات، فتؤدي إلى مشاكل جمة في علاقاتهم الحالية والمستقبلية؛ لأنهم لم يعرفوا النموذج السوي في العلاقة بين الرجل والمرأة.

٦- ضرب المرأة المريضة نفسياً: وهذه حالة خاصة تكون مدفوعة بأفكار ومشاعر مرضية تدفع المرأة لضرب زوجها (أو غيره)، ويحدث هذا في حالات الفصام أو الهوس أو الإدمان أو اضطراب الشخصية.

وربما يسال سائل: وما الحل؟

والإجابة هنا: لا يصح أن تكون بإعطاء بعض النصائح والتعليمات للرجل أو المرأة، وإنما تكتفي برصد الظاهرة، وبيان دوافعها وأسبابها، ثم بعد ذلك على المتضرر (إن كان هناك متضرر) أن يلجأ لابتكار حلول تغير من هذا الواقع الذي أدى لتزايد هذه الظاهرة، وعلى المجتمع أن يعيد ترتيب أحواله السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية بما يكفل إعادة التوازن والسلام، وإلى أن يحدث ذلك ندعو الرجال «المتضررين» بالصبر والسلوان، وندعو على الزوجات «الضاربات» بالهداية، ولا عزاء للرجال.